

أصداء عربية في قصة إسبانية

● تمهيد:

كتب ثرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦) قصة الأدب الأسباني في مختلف عصوره، الرواية والقصة بكل أنواعها، ولكن روايته الخالدة دون كيخوته دي لامنتشا حجبت ماعداها.

وقد تناول العبقري الإسباني بالدراسة الواسعة، الإسبانين والأوروبيين والأمريكيين على السواء: تناولوا إنتاجه بالتحليل، وحياته بالمتابعة، ولكن العنصر العربي في أدبه لما يدرس، لم يدرسه الإسبان لأنهم يأبون إلا أن يظل ثرفانتس أديبا إسبانيا خالصا، متجاهلين الأسس العربية التي قامت عليها نهضة الأدب الإسباني في عصره الذهبي، ولم يدرسه الأوروبيين والأمريكيين لأنهم خلال ما مرّ من الزمن، في الفترة التي ازدهرت فيها دراسات ثرفانتس، كان واقع العرب مريضا مرّا، فلم يكن هؤلاء ينظرون إليهم إلا من خلال حقدهم المفرغ، متجاهلين هذا الأثر الواضح في شموخ واستعلاء!

وإذ أنا أتابع أدب ثرفانتس فى أقاصيصه القصيرة، وقعت عينى على واحدة منها عنوانها «ريح الأصدقاء»، أحسست للوهلة الأولى أنها ليست غريبة علتى، وعندما رجعت بذكرتى إلى الوراء البعيد، تذكرت أنها شبيهة بواحدة من قطع الإملاء التى أملاها علينا «سيدنا» فى كتاب القرية منذ ربع قرن، مع اختلاف بسيط فى وقائعها فبطل القصة العربية شيخ عنك، وأحداثها جرت إبان فتح الأندلس، وأما بطل قصة ثرفانتس فسيده، ومسرح أحداثها «لشبونة»، وكانت ذات يوم ثغرا عربيا مزدهرا.

ولست أدرى من أى مرجع عربى، أو كتاب محدث نقل فقيه القرية القصة العربية، التى أملاها علينا، كما لا أدرى إذا كان ثرفانتس قد التقط القصة العربية— وليس ثمة شك فى أنه التقطها— من أفواه عامة الإسبان، وكانت أقاصيص الفروسية العربية وحكاياتها ملء وجدانهم وهو ما إليه أميل، أم أنه التقطها من العرب إبان إقامته فى الجزائر، وقد عاش فيها زمنا، وكانت الجزائر واحدة من أولى الأقطار العربية التى اتخذها المطرودون من عرب الأندلس وجهة لهم بعد إخراجهم من إسبانيا. وقصة ثرفانتس بعد ذلك، معروضة فى ترجمة أمينة دقيقة، لاتصرف فيها، لأن كثيرا من جملها، هى تعابير عربية أصيلة، كما أنها تحت يدى من قد تواتيم الفرصة، ليقارنوها مع النص العربى الأصيل، ويدرسوا ما بين النصين من أوجه الاتفاق أو الاختلاف، ومبعثه ومراميه.

● القصة العربية :

واضح أن ما سأورده من القصة العربية ليس هو نصها الكامل ، وإنما بقايا شاحبة لذكريات بعيدة ، لصقت فى ذاكرتى منذ الطفولة ، وقد محت أحداث الزمن منها كثيراً ، وبقي منها القليل ، ولكنى أكاد أزعم لنفسى وأنا مطمئن ، أن أغلب الجمل التى سأوردها ، هى مما جاء فى نص القصة العربية بلا تحوير ، فقد كان لها إذ ذاك فى حنايا عقلى رنين أعجاب ، جعلنى أحفظها عن ظهر قلب ، كما أن روايتى لها أوردت خطوطها الرئيسية كاملة ، ولمن شاء بعد ذلك ، وأنا بعيد عن مكتبتى وعن أية مكتبة عربية أخرى ، أن يراجع نصها فيما يتوهم من مظان الأدب العربى فى العصر الوسيط .



«يحكى أنه فى إبان فتح الأندلس ، كان شيخ عربى يتفياً ظلال أشجار البرتقال فى بستان له ، حينما اقتحم عليه داره شاب هلع يصيح : عائد بك من مطاردة ، مستجير بك من ثأر ، فأمنه الشيخ على نفسه ، واستمع لقصته :

«قال الشاب : إنه التقى فى طرف المدينة مع شاب آخر ، وحدثت بينهما ملاحاة ، فما كان منه إلا أن اسل سيفه وقضى عليه ، ثم تسلل هارباً قبل أن تفتك به الجموع التى أقبلت لترى الحادث !

فصحه الشيخ إلى حجرة آمنة، وهذا من روعه، وأمنه على حياته وطلب إليه أن يبقى فيها، حتى إذا ما أقبل الليل استطاع أن يغادر المدينة تحت جنح الظلام آمناً!

ولم يمض من الزمن غير أقله، حتى أقبل أربعة رجال يحملون بين أيديهم شاباً قتيلاً مضرجاً في دمايته، كان ابن الشيخ الهرم صاحب البستان، وقال حاملوه إن شاباً غريباً عن المدينة، التحم معه، وأنهى حياته بسيفه، فلم يخالج الأب المكلوم شك، في أن المستجير به، هو الذى أودى بحياة وحيدة، ولكنه كظم غيظه، واستجمع صبره، وأهل ابنه للدفن، وتلقى عزاء الأقارب وسلوان الأصدقاء، دون أن يفقد حلمه أو يضعف إيمانه، فلما جن الليل تقدم إلى الشاب فى ثقة المطمئن إلى قضاء الله، الراضى بقدره، وقال له: يا هذا!.. لقد مزقت قلبى، وفتت كبدى، وأوهنت منى العزم وأضعفت القوى، فقتلت وحيدى، تكأنتى فى شيخوختى، وسلوتى فى وحدتى، وامتداد حياتى إذا ما فجأنى الموت، ولكنى لن أنكث وعدا قطعته، ولن أراجع فى أمان منحتة، وحسبك — عافاك الله! — أن تفارق دارى، وأن تختفى عن ناظرى، وأن تغتم الظلام، لكى تفارق المدينة آمناً، وإليك هذه الدراهم، تعينك فى رحلتك، وبها تقيم أود حياتك زمناً، إذا ما افتقدت العمل أو القرى أو المضيف!

• القصة الإسبانية :

حدث ذلك فى الليلة الأولى التى دخلت فيها لشبونة، كنت أتجول فى أحد شوارعها الرئيسية، باحثًا عن فندق أفضل من الذى نزلت فيه، مارا بمكان ضيق غير نظيف، فاصطدمت مع برتغالى ملتئم، أزاحنى عنه فى شدة قوة، حتى أننى استلقيت أرضًا، فأثار هذا الاعتداء غضبى، فتركت مهندى يثار لى : سللت حسامى، وانتضى البرتغالى سيفه فى شجاعة أنيقة وجرأة، وكانت ليلة عمياء، وقدر أكثر عمى، وعلى هدى من حظى الأفضل وبدون أن أعرف إلى أين، وجه القدر طرف سيفى إلى عين خصمى، فوقع على ظهره تاركًا جسده على الأرض، بينما ذهبت روحه إلى حيث يعلم الله. وبدا لى الخوف مما صنعت فوجعت، ورأيت نجأتى فى الهروب، أردت ذلك، ولكنى ما عرفت إلى أين، إلا أن همسات الناس الذين بدوا، وكأنهم على وشك الحضور وضعت فى قدمى أجنحة، وفى خطوات تائهة عدت إلى أول الشارع، باحثًا عن مكان أختفى فيه، أو ركن أنظف فيه سيفى، حتى إذا ما أصابتنى العدالة، لا تجدنى مع شواهد تشير إلى جرمى.

وإذ أنا أجرى دوخان من الخوف، رأيت نارا فى بيت كبير، فألقيت بنفسى فيه دون أن أعرف لأى هدف، وجدت بهوا منخفضا مفتوحا، رائع التجميل ومددت خطوى فدخلت قاعة أخرى، كانت هى أيضا جميلة الزخرف ثم قادنى الضوء الذى كان يبدو فى غرفة

ثالثة إلى حيث وجدت سيدة مستلقية على فراش وثير، فاعتدلت جالسة فى قلق، وسألتنى من أنا؟ وعم أبحث؟ وإلى أين أذهب؟ ويمثل هذا الاحترام القليل أجبته:

— سيدتى: على هذه الأسئلة الكثيرة لا يمكننى أن أجيبك بأكثر من القول: إننى رجل غريب، ترك فى أعتقد رجلا آخر مقتولا فى هذا الشارع، وهو أمر فى أحسب أنا، يرجع إلى سوء حظه وتجبره أكثر مما يرجع إلى، فأرجوك بحق الله، وبحقك أنت، أن تنقذنى من صرامة العدالة، التى تلاحقنى فىما يبدو.

— أقتالى أنت؟

— لا ياسيدتى، أنا أجنبى، ومن بعيد جدا عن أرض هذا الوطن.

— حتى ولو كنت قشاليا ألف مرة، فسأنتذك إذا استطعت: اصعد فوق هذا السرير، وادخل تحت البطانية، واجلس فى تجويف تجده هناك ولا تتحرك، فإذا جاءت العدالة احترمتنى، وصدقت ما أقول لها.

صنعت كما أمرتنى، رفعت البطانية، ووجدت تجويفا انحشرت فيه، وكتمت أنفاسى، ودعوت الله بأفضل ما استطعت، وإذا أنا فى هذا الكرب العظيم، دخل خادم الدار وهو يقول فىما يشبه الصياح:

سيدتى : قتلوا سيدى (دون دوارتى) وهم يحملونه إلى هنا ، لقد أمضاه سيف فأصابه فى العين اليمنى وشقها كلها ، ولا يعرف له قاتل ولا سبب الخصام ، حتى ولم يكذب يسمع للسيوف صليل ، وإنما يقول غلام إنه رأى رجلا دخل هذا البيت هاربا .

وأجابت السيدة قائلة : من غير شك لابد أن يكون هو القاتل ، ولن يستطيع الإفلات ، واحسرتاه ! كم خشيت أن أرى ابنى يوثى به ميتا ، فلم يكن ممكنا أن يرجى من سيره الغوى سوى الشر ! .

فى هذه اللحظة ، أحضر الميت أربعة رجال يحملونه على أكتافهم ، فوضعه على الأرض بين يدى الأم الحزينة ، التى أخذت تولول فى صوت فاجع ... ياللتأرا ! كيف يدفع بنفسه إلى حتفه ، ولكن الوفاء بوعدى لا يسمع لى بأن أجيبك إلى مرادك ، ومع ذلك ، فوا ألاما ! كم ضايقتنى ! .



تصوروا حال قلبى ياسادة ، وأنا أسمع صياح الأم المرزوخة ، لقد بدا لى أن وجود ولدها الميت قد وضع فى يدها ألفا من طرائق الموت لتنتقم منى ، وكان من البين الواضح ألا مفر من أن تتصورنى قاتل ولدها ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل حينئذ سوى السكوت ، والأمل فى نفس اليأس ، وبخاصة عندما دخلت العدالة المخدع ، وسألت السيدة فى أدب : جاء بنا إلى هنا قول غلام يزعم بأن قاتل هذا السيد ، دخل هذا البيت ، ففجرنا على اللخول .

كنت خلال ذلك أسترق السمع، وأصفي إلى أجوبة الأم الحزينة، التي ردت ونفسها طافحة بشجاعة كريمة، وشفقة مسيحية:

— إذا كان ذلك الرجل قد دخل هذا البيت، فإنه على الأقل لم يأت إلى هذه القاعة، فابحثوا عنه في غيرها، ولو أنني أضرع إلى الله ألا تجدوه، فما أسوأ أن يعالج الموت بالموت، وبخاصة إذا لم يكن الضر مقصودا، فانصرفت العدالة للبحث في بقية البيت، وعادت إلى الأرواح التي كانت قد فارقتني ثم أمرت السيدة بأن يرفعوا أمامها جثة ولدها، وأن يكفونوه، ثم أشارت بدفنه، كما أمرت بأن يتركوها وحيدة، لأنها ليست مستعدة لاستقبال الكثيرين الذين جاءوا ليقدموا لها التعازي والسلوان من الاقرباء والأصدقاء والمعارف، وبعد ذلك دعت خادما لها، كانت فيما يبدو أكثر من تثق فيها، فهمست في أذنها ببعض الكلمات ثم ودعتها، وأمرتها بأن تغلق الباب وراءها، فصنعت ما أمرت، بينما جلست السيدة على السرير، ومست البطانية، وفيها يبدو وضعت يدها فوق قلبي، وهو يخفق في سرعة، فدل ذلك على ما اعتراه من الخوف، فلما رأت ذلك، قالت لي في صوت خافت مكلوم: يارجل كائنا من كنت، قد رأيت أنك أزلت أنفاس صدرى وأذهبت نور عيني، وأخيرا الحياة التي كنت أرتكز عليها، ولكنى رأيت أن ذلك حدث بدون قصدك، فأريد أن ينتصر وعدى على انتقامي، والوفاء بالعهد الذي قطعته لك، بتحريك عندما دخلت إلى هنا، والآن عليك أن تصنع مايلي: ضع يدك فوق وجهك،

حتى إذا غفلت ففتحت عيني لا تضطرنى إلى أن أعرفك، واخرج من هذا المحباً واتبع خادما لى ستأتى إلى هنا، وسوف تقودك إلى الشارع وتعطى لك مائة درهم من الذهب، تيسيرا لأمرك، وأنت لست معروفا هنا، وما فيك من دليل ينم عليك، واحتفظ برباطة جأشك، لأن الإفراط في القلق يدل عادة على المجرم!



ثم جاءت الخادم فخرجت من وراء القماش مغطيا وجهى بيدي، وانحيب لها شاكرا، وقبلت قلعبا عدة مرات، ثم قفوت أثر الخادم التى أخذتنى من ذراعى توا صامته، ومن باب خلفى للبلستان، وتحت جنح أستار الظلام، أفضت بى إلى الشارع، ولما وجدت نفسى هناك، كان أول همى أن أغسل سيفى، وفى خطى مطمئنة انتهيت عفوا إلى شارع رئيسى، فاهتديت إلى فندقى، واقتمتته كأن لم يحدث لى خير ولا شر، ثم قص لى صاحب الفندق مصيبة السيد القتيل من قريب، وبالغ فى تمجيد أسرته، وفى إطراء طباعه الجريئة، التى ربما تكون قد أوجدت له عدوا خفيا قاده إلى مثل هذه النهاية.

قضيت تلك الليلة فى حمد الله على آلائه، وفى إطراء تلك السيدة الشجاعة، العجيبة الأخلاق، الصلدة البصر، المنقطعة النظر، المسماة «دنيا يعقوبة»، ثم غدوت إلى النهر مبكرا، فوجدت فيه زورقا حافلا بأناس، يريدون أن ينتقلوا إلى سفينة كبيرة راسية فى «سان

جان»، على وشك أن ترحل نحو جزائر الهند الشرقية، فعدت إلى فندقى، وبعثت بفتى لصاحبها، وأغلقت قبضة يدى على كل ما حدث، وعدت إلى النهر والزورق، وإذا بى فى اليوم التالى خارج المرسى، على ظهر السفينة الكبيرة أشرعتها مرسله للريح، سالكة طريقها نحو ما كانت تريد..!

مدريد

مجلة المجلة - مارس ١٩٦٤